الهويـــــــــة الوطنيـــــــــة

الأرض الولودة

كَانَتِ الْجَزَائِرُ، مُنْذُ فَجْرِ التَّارِيخِ، لَوْحًا مِنَ الْمَجْدِ يَرْسُمُهُ أَبْنَاؤُهَا بِدِمَائِهِمْ. مُنْذُ أَنْ بَدَأَتْ مَعَالِمُهَا تَلُوحُ فِي الْأُفُقِ، كَانَ هُنَاكَ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ يَقِفُونَ كَالْجُدْرَانِ الْحَامِيَةِ، يُضَحُّونَ بِأَرْوَاحِهِمْ دُونَ تَرَدُّدٍ. أُولَئِكَ الْأَبْطَالُ الَّذِينَ خَلَّدَتْهُمُ الْأَرْضُ، وَإِنْ نَسِينَاهُمْ، فَإِنَّ تُرْبَتَهَا الَّتِي ارْتَوَتْ بِدِمَائِهِمْ لَنْ تَنْسَاهُمْ أَبَدًا.

الرَّائِسُ حَمِيدُو، ذَاكَ الْقُرْصَانُ الْجَزَائِرِيُّ الَّذِي جَابَ الْبِحَارَ وَصَدَّ الْأَعْدَاءَ، كَانَ أَحَدَ هَؤُلَاءِ الشُّجْعَانِ. بِجَسَارَتِهِ وَعَزِيمَتِهِ، أَسَّسَ لِإِرْثٍ بَحْرِيٍّ يَعْكِسُ شُمُوخَ الْجَزَائِرِ. الْأَمِيرُ أَرَابِيُون، الَّذِي حَارَبَ الْبُرْتُغَالِيِّينَ، كَانَ سَيْفًا فِي وَجْهِ الْمُسْتَعْمِرِ وَحَامِيًا لِكَرَامَةِ الْوَطَنِ.

وَفِي الزَّمَنِ الْأَقْرَبِ، مَعَ الثَّوْرَةِ ضِدَّ الِاسْتِعْمَارِ الْفَرَنْسِيِّ، ظَهَرَتْ أَسْمَاءٌ لَامِعَةٌ مِثْلَ حَسِيبَةَ بْنِ بُوعَلِي، الَّتِي كَانَتْ فِي رَيْعَانِ شَبَابِهَا عِنْدَمَا ضَحَّتْ بِحَيَاتِهَا لِتُحَرِّرَ وَطَنَهَا، وَعَلِي لَابُوَانْت، الَّذِي وَاجَهَ الْمَوْتَ بِصَلَابَةِ الْجِبَالِ. وَلَمْ يَكُنْ أَحْمَدُ زَبَانَةَ بَعِيدًا عَنْهُمْ، فَقَدْ صَعِدَ إِلَى الْمَقْصَلَةِ بِوَجْهٍ مَرْفُوعٍ لِيَكُونَ أَوَّلَ شَهِيدٍ يُعْدَمُ دِفَاعًا عَنْ حُرِّيَّةِ الْجَزَائِرِ. وَكَذَلِكَ الْعَرَبِيُّ بْنُ مَهِيدِي، الَّذِي قَاوَمَ الِاسْتِعْمَارَ بِشَجَاعَةٍ وَرَفَضَ الِاسْتِسْلَامَ، قَائِلًا عِبَارَتَهُ الشَّهِيرَةَ: "ارْمُوا بِالثَّوْرَةِ إِلَى الشَّارِعِ يَحْتَضِنْهَا الشَّعْبُ".

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَبْطَالِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ، لَمْ يَخْشَوْا الْمَوْتَ، لِأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ الْأَرْضَ الَّتِي يُحَرِّرُونَهَا سَتَشْهَدُ لَهُمْ عِنْدَ خَالِقِهِمْ. الْجَزَائِرُ الْيَوْمَ لَيْسَتْ سِوَى لَوْحَةٍ مِنَ التَّضْحِيَةِ رَسَمَتْهَا دِمَاءُ هَؤُلَاءِ، وَسَتَبْقَى أَسْمَاؤُهُمْ مَحْفُورَةً فِي ذَاكِرَتِهَا إِلَى الْأَبَدِ.

جميلة بوحيرد

الْمَرْأَةُ الَّتِي صَفَّقَ لَهَا الْعَالَمُ طَوِيلًا حُبًّا وَفَخْرًا وَتَقْدِيرًا، هِيَ شَجَرَةٌ مُثْمِرَةٌ فِي أَرْضِ الْجَزَائِرِ، رَاسِخَةٌ فِي ذَاكِرَةِ شَعْبِهَا. إِنَّهَا الْبَطَلَةُ جَمِيلَةُ بُوحَيْرَد، الَّتِي وُلِدَتْ فِي عَامِ 1935 فِي حَيِّ الْقَصَبَةِ بِالْعَاصِمَةِ الْجَزَائِرِيَّةِ، وَنَشَأَتْ فِي بِيئَةٍ وَطَنِيَّةٍ غَرَسَتْ فِيهَا حُبَّ الْوَطَنِ مُنْذُ صِغَرِهَا. فَقَدْ كَانَ الْفَرَنْسِيُّونَ يُجْبِرُونَ التَّلَامِيذَ الْجَزَائِرِيِّينَ كُلَّ صَبَاحٍ عَلَى قَوْلِ: "فَرَنْسَا أُمُّنَا"، وَلَكِنَّهَا تَرْفُضُ، وَدُونَ خَوْفٍ كَانَتْ تَصْرُخُ: "الْجَزَائِرُ أُمُّنَا."

فِي سِنٍّ مُبَكِّرَةٍ، انْضَمَّتْ جَمِيلَةُ إِلَى صُفُوفِ جَبْهَةِ التَّحْرِيرِ الْوَطَنِيِّ، وَبَدَأَتْ نِضَالَهَا ضِدَّ الِاسْتِعْمَارِ الْفَرَنْسِيِّ. كَانَتْ مِثْلَ الشُّعْلَةِ الَّتِي تُضِيءُ الطَّرِيقَ، فَشَارَكَتْ فِي الْعَدِيدِ مِنَ الْعَمَلِيَّاتِ الْفِدَائِيَّةِ، وَنَقَلَتِ الرَّسَائِلَ وَالْأَسْلِحَةَ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي الْجِبَالِ. شَجَاعَتُهَا كَانَتْ كَالنَّسْرِ الَّذِي يُحَلِّقُ بِلَا خَوْفٍ فِي السَّمَاءِ.

عِنْدَمَا أُلْقِيَ الْقَبْضُ عَلَيْهَا عَامَ 1957، تَعَرَّضَتْ لِلتَّعْذِيبِ الْوَحْشِيِّ عَلَى يَدِ الْفَرَنْسِيِّينَ، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ صَامِدَةً، كَالْجِبَالِ الَّتِي لَا تُهَزُّهَا الرِّيَاحُ. رَفَضَتِ الِاعْتِرَافَ أَوْ خِيَانَةَ رُفَقَائِهَا، وَوَقَفَتْ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ بِجُرْأَةٍ كَبِيرَةٍ، حَيْثُ حُكِمَ عَلَيْهَا بِالْإِعْدَامِ. إِلَّا أَنَّ الْعَالَمَ كُلَّهُ انْتَفَضَ لِأَجْلِهَا، وَنُظِّمَتْ حَمَلَاتٌ دُوَلِيَّةٌ لِلْمُطَالَبَةِ بِإِنْقَاذِهَا، فَأَصْبَحَتْ رَمْزًا لِلْمُقَاوَمَةِ الْعَالَمِيَّةِ. فِي النِّهَايَةِ، تَمَّ تَخْفِيفُ الْحُكْمِ إِلَى السِّجْنِ مَدَى الْحَيَاةِ.

بَعْدَ اسْتِقْلَالِ الْجَزَائِرِ عَامَ 1962، أُطْلِقَ سَرَاحُهَا، وَعَادَتْ إِلَى وَطَنِهَا كَالْعُصْفُورِ الَّذِي يَسْتَعِيدُ حُرِّيَّتَهُ بَعْدَ قَيْدٍ طَوِيلٍ. جَمِيلَةُ بُوحَيْرَد لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ مُنَاضِلَةٍ؛ بَلْ كَانَتْ رَمْزًا لِلْحُرِّيَّةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَوَجْهًا لِلْمَرْأَةِ الْجَزَائِرِيَّةِ الَّتِي حَمَلَتْ هُمُومَ الْوَطَنِ عَلَى أَكْتَافِهَا. بِفَضْلِهَا وَبِفَضْلِ مُنَاضِلَاتٍ أُخْرَيَاتٍ، حَقَّقَتِ الْجَزَائِرُ اسْتِقْلَالَهَا، وَسَتَظَلُّ سِيرَتُهَا خَالِدَةً فِي صَفَحَاتِ التَّارِيخِ، كَنَجْمٍ يُضِيءُ سَمَاءَ الْوَطَنِ.